

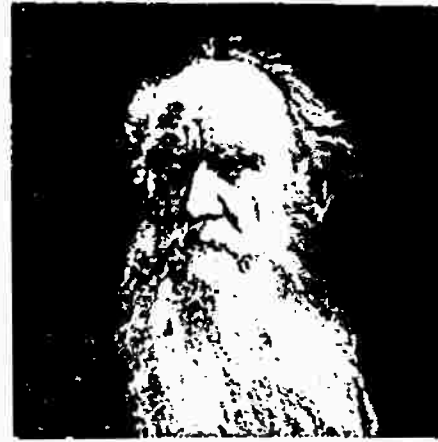
الأدب في سبر أعينهم :

٥ - تولستوى

[فة من قسم الشوامخ في أدب هذه الدنيا قديمه وحديثه]

للأستاذ محمود الخفيف

فتى حائر



كان ليو في نحو
الثالثة عشرة من
عمره حينما انتقل مع
إخوته إلى قازان ؛
وكان جدم أحد
حكام قازان من قبل
فكانت الصبية
ملحوظة المكانة في
مضطربهم الجديد

وكان يصحب كل صبي منهم خادم خاص جىء به من بين عبيد
في ياستايا ، وترفع الصبية عن حولهم من الناس إلا من كانت
لهم مثل مكانتهم ولذلك قلت خبرتهم بقازان وأهل قازان ...

وكانت عمتهم يوشكاثا التى يمشون يومذاك في رعايتها طيبة
القلب ولكنها لم تكن على قدر من الثقافة كبير ، وكان زوجها
من ذوى الثراء يحمل أكثر وقته للموسيقا ولعب الورق إليها ؛
ولذلك كثيراً ما كان ينشئ بيته جماعات من أصحابه وكثيراً
ما صرف الصبية عن الجد من الأمور مشاهدتهم هذه الجماعات
وأوحى إلى نفوسهم اللعب واللهو فكان لذلك سوء أثره في دروسهم .

ولكن ليو لا يسرف في ذلك إسراف إخوته ، بل إنه ليميل
إلى عجاتهم إلى حد ما منذ أن رآهم يتغيرون عما أفهم ، ورأى في
أذواقهم وميولهم ما يحس أنه غريب عليه جديد عليهم وما لا يسمه
إلا أن ينكره منهم بينه وبين نفسه .

ولعله ما أنكر ذلك منهم إلا لأنه لا يستطيعه لنفسه ، فقد
عاوده ما يكدر نفسه من اهتمامه بهيئته وماذا عسى أن يكون
وقمها في النفوس ؛ وإنه ليطيل النظر في الرأفة فلا تمنجبه أذناه
الكبيرتان ولا أنه المفرطح الواسع التخزين ولا عيناه الشهابوان
الجاحظتان بعض الشيء ولا شفتاه النليطتان بعض الغلظ .

على أن له في القراءة مصرفاً عن هذا ، وعزاء ومتمعة غير
ما يسمى إليه إخوته من متمعة ؛ وهو اليوم في الرابعة عشرة من
عمره يلهم ما تصل إليه يده من الكتب التهاماً ؛ ولن يزال
مكباً على كتابه ساعات طويلة حتى لينسى نفسه ، لأنه يعيش
بخياله فيما يقرأ ؛ وكان مما قرأ يومئذ كتاب ألف ليسة وقد
أثرت في خياله وحسه قصة « الأربعين لصاً » تأثيراً قوياً وكذلك
فعلت قصة الأمير « قرازمان » ؛ وقرأ الغلام شعر بوشكين وأعجب
بقصيدته عن نابليون ، وراقته قصة « اللباجة السوداء » للكاتب
الروسي بوجورولسكي ؛ وقرأ الإنجيل وكم تأثر قلبه بقصة يوسف
فإن أثرها فيه كان على حد قوله هائلاً ، ولم يزل بمد ذلك بسنين
يصف ما أعجبه من وجازتها وبساطتها وصدقها ، ولم يكذب يبلغ
الخامسة عشرة حتى أصبح مسحوراً ببجان نجاك روسو ، وإنه من
فرط تأثره به ليكاد ينسى كل شيء غيره ، وقد بلغ افتتانه به أنه
استبدل صورة له بما كان يضع فوق صدره من صليب ، وأقبل
على اعترافاته وكتايبه « إميل » و « هلويز الجديدة » فقرأها مرة
بعد مرة ، وكلما أعاد قراءتها ازداد حبه لها واشتد تأثره بها . قال
بعد ذلك يصف هذا السحر : كانت صفحات كثيرة منه وثيقة
الصلة بنفسى ، حتى لقد خيل إلى أنى أنا الذى كتبها لا محالة .
ويعتلى ذهن الفتى في السادسة عشرة بكثير من مسائل
الفلسفة ، بل إنه ليطمع أن يحل ألغاز هذا الوجود فيشغل نفسه
بالنظر في خلود الروح ووظيفة الإنسان في هذا الكون وصلته
به وإمكان وجود حياة أخرى إلى أمثاله من المضلات والمسائل .
وينظر الفتى في نفسه فيصم إلى رأى ، وذلك أن سماعة المرء
لا تتوقف على الموامل الخارجية في ذاتها ولكن على صلة الإنسان
بهذه الموامل ، ومن ذلك مثلاً أن الإنسان إذا أخذ نفسه بالتقشف
وتمود الآلام ألف شقاء العيش وآلامه فان يشق به ولن يألَم منه

وعلى ذلك فقد أخذ نفسه بالوان من العنف والشدة كأن يحمل بعض الكتب الثقيلة زمناً ويداه ممدودتان ، وكان يضرب جسمه وقد نمرى بجبل حتى تدمع عيناه ، ثم إنه يقنع نفسه بأن التفكير في الموت أمر لا محل له وللإنسان أن يستمتع بالساعة التي هو فيها فالموت أمر لا بد منه والحياة أنفه من أن يمسي بها المرء قلبه ، فليمرح الفتى ماوسمه المرح وليتعرف عن الدرس وليقبل على كل ما يلذه من طيبات الحياة خيرا وشرها وليقض وقته في قراءة القصص وأكل الحلوى ...

ويحاول أن يتدسس إلى أعماق نفسه ليرى ماذا يجري في شموه فيصل به الأمر إلى ما يقرب من الخجل . نجد ذلك في قوله « وكنت أفكر في أني أفكر فيما كنت فيه أفكر » وإنه ليستغرق في تفكيره هذا حتى ليا كل ما في يده ذات مرة من ديدان كان أعدها طعاماً للسك أثناء سيده ثم يمج الديدان من فيه بين الضحك والتفرز .

ولا يلبث الفتى حتى يجد نفسه قد أخذته التشاؤم من جميع أقطاره ، ثم يجد نفسه مستغرقاً في هذا التشاؤم استغراقاً ، فلا فكك له منه ولا منتدح عنه . نجد ذلك واضحاً في عبارة جاءت له في كتابه « عهد اليقظة » ، ولئن كان هذا الكتاب كسابقه « عهد الطفولة » وكلاحقه « عهد الشباب » لم يكتب على أنه تاريخ حياته فإن أكثر ما جاء فيه من وصف لشخصيات خلقها وأكثر ما جاء على السنة هذه الشخصيات يدور حول حياته ومن كان له بهم في هذه المهود صلة . قال « لم تشتد زعة فلسفية في نفسي كما اشتدت زعة التشاؤم ، تلك الزعة التي أشرفت بي ذات مرة على حافة الخجل فقد تخيلت أنه ما من شيء أو شخص هو قائم في هذا الوجود بجانب شخصي ؛ وأن الأشياء جميعاً ليست أشياء فقط ، ولكنها صور لحسب لا تظهر إلا عند ما أتجه بفكري إليها ، وإنها انتختني حين ينتهي تفكيري فيها ؛ وقصاري القول أني وافقت شلنج فيما ذهب إليه من أن الأشياء لا وجود لها في ذاتها وإنما الوجود هو علاقتي بها ؛ ومرت بي لحظات وصلت فيها تحت تأثير هذه الفكرة التسلطة على إلى حالة من الخجل حتى لألتفت في سرعة حولي كي أدرك اللاشئ لقد ازدهتني هذه الكشوف الفلسفية

التي بلغت وأثارت غروري إلى حد عظيم ، وكثيراً ما تخيلت أني رجل عظيم يكشف حقائق خبير بني الإنسان ، وبهذا الشعور الذي انطوت عليه نفسي ، شعور الكبرياء نظرت إلى باقي البشر ، ولكنني ما راجعت أحداً من هؤلاء الفانين إلا أحسست بالخجل حياله ، الأمر الذي يحمل على كثير من العجب ، وكلما رفعت قدرتي نفسي شعرت أني أقل مقدرة لا على إظهار ما يخالجي من شعور الرقة لحسب ، بل كذلك على أن أعود نفسي أن أنجب الخجل الذي يمتري من أبسط كلماتي وحركاتي .

وتتوزع فتأذه هواجس الشباب وأحلامه ، فبينما هو مستغرق في تشاؤمه مسرف فيه ، إذا به يميل بفتة إلى التفاؤل فيجمع عزمه على أن يجد في تحصيل دروسه وأن يكون خير مثال للطلاب المجتهد ، ويذهب به التفاؤل إلى حد أن يعتزم العمل على أن يكون موضع إعجاب كل من يراه من الناس فإن لم يتفق له هذا في نواحي الكفاية والبطولة ، فليس ذلك بمانه أن يبلغ مأربه في أن يصبح أغنى بني الدنيا وأمنهم مكانة .

ولكنه لا تكاد تنقضي أيام على ما عقد عليه العزم حتى يعود إلى تشاؤمه وإلى بطالته ولهوه ، ثم إنه يطلق العنان لرغبات جسده ، وهو فتى قوى البدن متدفق الحيوية يكاد يلتهم مما يخالجه من رغبات هذا البدن على الرغم من إصراره فيما يطق به هذا الظلم المتصل به ؛ وما يزال به شيطانه يفره ويزين له كثيراً من الإثم ، ويسوقه إلى مهاوى الفتنة حتى يوقع في حباله فتاة من الخدم ذات ملاحاة فيفويها ويقضى منها وطره ! ويبلغ نبأ هذا الإثم عمته فتطرد الفتاة من البيت إلى حيث تطلقها مهاوى الرذيلة ثم بطويها الموت قبل أوانه على صورة محزنة نكراء ...

وما يمتينا هذا الفعل إلا لأنه استقر في أعماق وجدانه . فكان منه حين تجاوز السمين من عمره صورة فذة لأهم شخصية في قصة تمد من أعظم آثاره الفنية وأخلدها الأوهى قصة (البث) ويضطرب الفتى اضطراباً شديداً بين وساوس الشباب ، فما يكاد يخالجه الندم على ما بعده تقربطاً منه في جنب الفضيلة ، حتى يستسلم ثانية إلى الرذيلة ، ثم يعود فيجمع عزمه على الورع والطهر والمفة وعلى أن يأخذ نفسه بالجد من الأمور ، ولكنه

لا يلبث حتى ينقاد إلى ما يوسوس له به شيطانه .

وهكذا ما يزال الفتى يتلقى بالكمال مرة ، وينحدر حتى يقرب من قرارة الانحطاط مرة ، ويرضى عن نفسه حيناً ويحجم على صدره الندم حيناً ، دون أن يستقر على وضع أو يركن إلى رأى ...

والمرء أن يعجب حقاً من أن تشغل الفتى مثل هاتيك الأمور في سن كسنة يومئذ ؛ ولقد كان بعد ذلك بسنين يشعر بما عسى أن تغير من عجب ، بل إنه كان يخشى ألا يصدقها المرء أو أن يردّها إلى الباطنة في القول كما ذكر ذلك في كتابه « عهد اليقظة » . فإكان التفكير المتصل في الحياة والناس ، وما كانت الرغبة في بلوغ الكمال وتلّس السبيل إلى تحقيق تلك الرغبة مما يتكافئ تلك السن ، ولولا ذلك الوضع الذى كان فيه وهو حدث لم يلتحق بعد بجامعة من الجامعات ، وحسب أناده أن يقرأ الفتى منهم قصة أو يلهو بديوان شعر ...

ولكنه كان فيما يشبه الحى يومئذ مما يجول في رأسه من أفكار وما يهيج في نفسه من خواطر ، وما يلج تلك النفس الحائرة من رغبة في السمو ومن طموح نحو المثل الأعلى ، وإن تولستوى الفتى اليوم لموصورة مصفرة لتولستوى الكاتب العظيم في غد ، يوم يشتغل ذهنه الجبار بالفن والدين وبمسائل الاجتماع ، ويوم يبحث حائراً قانطاً أول الأمر عن الغرض من هذه الحياة ، حتى تزل السكينة عليه إذ يرى أن الغرض من الحياة يتلخص في العمل على السمو بها نحو ما يريد الله من كمال .

وإن تحمسه للمعرفة على هذه الصورة واهتمامه بأن يبلغ ما يطمح إليه من رفعة لدليل لا يدع مجالاً للريب على أنه فطر على البحث عن الحقيقة وأنه من المباشرة القلائل الذين تغلظ بهم الإنسانية إلى سر وجودها ، والذين يأتون إلى العالم على فترات من الزمن ليقوموا بالدليل بوجودهم في ذاته على أن حياة الإنسان جدية بأن يحياها الإنسان .

وإنك لتجد مثالا لما كان يعنى به نفسه يومئذ فيما جاء بكتابه « عهد اليقظة » قال :

« كنت يومئذ في نحو السادسة عشرة ، وكان الرفاء

لا يزالون يترددون على ، وكنت أنهيها في فتور وكثرة لألتحق بالجامعة ... وفي ذلك الوقت الذى أعده نهاية اليقظة وبدء الشباب ، كانت تقوم أحلامى على مشاعر أربعة : أولها حبى « لها » تلك المرأة الخيالية التى كنت أحلم بها دائماً على وتيرة واحدة والتي كنت أتوقع أن ألقاها في أية لحظة في أى مكان ما ؛ وثانيها عبتى في أن أغدو محبوباً ، فقد رغبت في أن يعرفنى كافة الناس وأن يحبونى ، ورغبت في أن أصرح باسمى فأجد من الناس جيماً ما يدل على اهتمامهم بما أصرح به وأراهم يحيطون بى فيهم . وفى شكرهم لى على أسرها ؛ وثالثها أمل فى حظ عظيم غير عادى ، وقد بلغ من تسلط هذا الأمل على أن أشرف بى على الجنون ، ورابع مشاعرى وهو أهمها كان إحساسى بأشترأزى من نفسى واستشعارى الندم ، ولكنه كان ندماً ممتزجاً بالأمل فى السعادة ولذلك لم يخالطه الحزن ... ولقد أحسست السرور فى نفورى من الماضى وحاولت أن أجعله أكثر اسوداداً مما كان عليه فى واقع الأمر ، وذلك أنه كلما كانت ذكرى ماى عن الماضى أكثر سواداً ، ظهر لى الحاضر الناصع الواضح أكثر وضاءة ووضوحاً ، وتراءت لقلبى أحلام المستقبل أكثر جمالاً وبهجة ، ولقد كان ذلك الصوت النبىث فى نفسى صوت الندم والرغبة القوية الحادة فى بلوغ الكمال هو الاحساس الرئيسى لروحى فى تلك الحقبة من نموى ، وكان هو الذى رسم لى أساس نظراتى فى نفسى وفى البشرية وفيما خلق الله من كون »

وكان له يومئذ صديق فى قازان ، كان فتى طويل القامة ، عريض النكبين حسن الهيئة ، فى وجهه ملاحظة ورقة ، يتسم عن أسنان جميلة دقيقة ، ويزين رأسه شعر مسبل ناعم ، ولكنه كان على الرغم من ذلك خجولاً كصاحبه إذا لقي الناس ، بل لعله كان أشد منه خجولاً وأكثر حساسية ...

وقد حجب هذا الفتى إلى تولستوى إخلاسه لما يعتقد من رأى وتحمسه له وصراحته فى التعبير عما فى نفسه مهما يكن من أمره ، وقد سأل دياكوف ذات مرة - وهذا هو اسمه - صاحبه تولستوى قائلاً أتدرى لماذا أحببك أكثر مما أحب غيرك ؟ ذلك لأنك سريع لانكتم شيئاً فى نفسك ، وهكذا يجتمع الفتيان

مضطرب الحياة ، ولن ينسى شيئاً مما رأى أو سمع عن أمر يتصل بما يقوم في رأسه من فكرة مهما بلغ من مسالة هذا الأمر ، وتلك ناحية من أهم نواحي قدرته الفنية يوم يندو أعظم من كتب القصة في أدب قومه وأحداً أفاضها القلائل في أدب أوروبا كله ..

وستمضي الأعوام ويبقى أثر ديا كوف في نفسه ، فقد كان بما أوحته اليه محبته عبادة الفعيلة ، وأن غاية الإنسان في الحياة العمل على بلوغ الكمال والسمو بالنفس أبداً ، وسوف يظهر أثر ديا كوف في قصة الحرب والسلام فيما جاء على لسان « أندري » أحد شخصيات القصة قبل معركة أوسترلitz إذ يقول « إنى أرغب في المجد ، أرغب أن أكون معروفاً عند الناس وأن يحبني الناس ، وما لي رغبة غير هذه ، وما أعيش إلا من أجلها ... وإنى وإن كان ذلك منى أمراً مروعاً غير طبيعي لأصحي حتى بأعز الناس عندي في سبيل لحظة من المجد والفوز على الرجال ومحبة من لا أعرفهم من الناس ومن سوف لا أعرفهم بعد أبداً

الحقبة

(بنج)

على الصراحة فتربط بينهما ، وإنهما ليتقاربان في كثير من ميولهما ، ويتضح لهما ذلك فيما يديرانه بينهما من حوار في أمور كثيرة ، فيما يتصل بالدين وفيما يتصل بالمجتمع وأركانه من حكومة وتعليم ونظم مالية وما إليها

ولقد كان هذا الفتى شديد التأثير في حياة صاحبه فما فرغ من محاورته مرة إلا قويت في نفسه الرغبة في العمل على الكمال النشود ، والانطلاق من حياة اللهو والعبث ، تلك الحياة التي يذهب فيها العمر سدى ، ولئن لم يك اتولحتوى ما لصاحبه من حسن الهيئة فليس ذلك بمانه أن يعمل على كسب ما يحمل الناس على الإعجاب به مما هو أهم وأجدي من النظر وحسن الطلعة ، بل إنه لحافزه إلى ذلك العمل الذي يمدد عليه عزمه .

على أنه عزم كأكثر ما يترزم الشباب فما يلبث أن يذهب فيما تحيطه به الحياة من مسراتها ومفرياتها ، ولكم اضطرب تولستوى بين عزمه وبين لهوه ، ولكم جدد العزم ثم تحلل من عزمه

وكان ديا كوف هو شخصية ديمتري في كتابه « عهد اليقظة » فما يقوت كاتب الند أن يصور أشخاصه كما رآهم في

وزارة المعارف العمومية	السنة الرابعة بالمدارس الأولية والريفية	أورثته .
مراقبة التوريدات	والسنة الثانية بالمدارس الابتدائية .	وستشترى الوزارة حق تأليف النشيد
إعلان مسابقة	والأنشيد المزمع اختيارها تبليغ زهاء مائة نشيد تقسم على المجموعات الأربع ،	الذي تفر السابقة عن صلاحيته نظير الكفاة المشار إليها .
تعلن الوزارة مسابقة عن حاجتها إلى كتب في الأنشيد لتلامذة المدارس الأولية والريفية والابتدائية تكون في أربع مجموعات الأولى لتلامذة السنة الأولى بالمدارس الأولية والريفية والثانية لتلامذة السنة الثانية بهذه المدارس والثالثة لتلامذة السنة الثالثة بهذه المدارس والسنة الأولى بالمدارس الابتدائية والرابعة لتلامذة	ووحدة السابقة هي النشيد لا الكتاب على أن يكون للتسابق الحق في التقدم بنشيد فأكثر ، وتراوح كمية النشيد بين ستة أبيات وخمسة عشر بيتاً .	وأخر ميعاد لتقديم الأنشيد للوزارة هو يوم ١٥ مايو سنة ١٩٤٧ .
	وقد حددت الوزارة للنشيد الواحد كفاة تتراوح قيمتها بين ثلاثة جنيهات وخمسة ويقدم النشيد مطبوعاً أو مخطوطاً من صورتين ولا يتقدم به إلا منشؤه	وقد وضعت الوزارة لهذه السابقة شروطاً وتوجيهات خاصة يمكن المتسابقين الحصول عليها من مراقبة التوريدات بالوزارة بشارع الفلكي .
		٦٨٣٦